الوطنية، ولو بعد حين، وهي توحي بالثورة دون أن تقول زمنها، بل تقول ولادتها. «ذلك أنه في المكان الذي سقط فوقه الجبين، في الحفرة المدورة التي صنعتها السقطة، ولد طفل...»[٥]. وكما يتضح من هذه الفقرة المجتزأة من القصة، فان ولادة الصغير هي وعد الثورة في حركتها السرية في ذلك الزمن، زمن النشاط السري للخروج من أزمة الانسان الفلسطيني في منفاه. ان غسان يحاول، في هذه القصة، أن يقول بالرمز ما قالته رواية «رجال في الشمس» بالأحداث، أي أن يرسم أفق البدايات الثورية عبر فهم الجماهير نفسها، من وعيها وتطلعاتها وأزماتها الشخصية... ولهذا، تتحكم الخطابة والكتابة السردية بمبنى هذه القصة الرمزي، لأنها خارجة من لحظة التشبث العياني، ومن أفق الرؤية الكنفانية في بداياتها الكتابية... لقد «صار بوسع أظافره أن تخدش الحديد اذا ما اعترض الانطلاق المصمم. ولم تعد الهواجس الرمادية قادرة على ايقاف الحماس الملتهب لحظة واحدة»[٦]. وهكذا، فان القصة تجسد بالسرد، ما لا تجسده بالرمز، وتقول بالخطابة ما لا تستطيع قوله بالايحاء ولغة الاشارة. «لا تمت قبل أن تكون نداً»[٧]. ان كتابة غسان كنفاني، في بداياته، مرهونة بتصوره وأفق رؤيته السياسية، ولهذا يكتنفها الابهام وغبش الرؤية في بعض قصصه القصيرة، وهو ما يستطيع تجاوزه في رواياته وبعض قصصه القصيرة وخصوصاً قصته المكتوبة في فترة مبكرة نسبياً، وهي قصة «السلاح المحرم» في مجموعة «أرض البرتقال الحزين»... ان غسان يعي في هذه القصة مرحلة أولى من مراحل الكفاح المسلح الفلسطيني، وهي فترة الثلاثينات؛ اذ يروي بصورة عفوية تطور الثورة في وعيها العفوي وتضادها مع نقيضها وصدامها الرئيسي مع المحتل. وضمن هذا التصور تحكي القصة كيف انتزع «أبو علي» بالقوة بندقية الجندي الانكليزي وهرب بها. ومن الواضح أن هذه القصة هي جذر قصة أخرى مكتوبة بعدها هي «العروس»، وهي أيضاً جذر المجموعة القصصية الهامة في نتاج غسان «عن الرجال والبنادق»، والتي تجسد ثورة الشعب وقيامته. ان الراوي يقول لصاحبه: «ابحث معي عنه، حيث أنت، فلدي أخبار جديدة عن العروس»[٨]، ليحل بذلك الاشكال الذي عقده غسان في قصة «السلاح المحرم»؛ حيث سرقت البندقية من أبي علي واختفى هو... لقد ظهر الرجل في البلاد العربية فيما بعد، يبحث عن «العروس» التي هي البندقية. تتضح، من خلال هذا التواصل في انتاج غسان كنفاني الكتابي، الروح الموحدة التي تربط أجزاء نتاجه... فهو يكتب تاريخ الثورة، بدايات هذا التاريخ في هاتين القصتين ليؤسس بذلك لعمله القصصي «عن الرجال والبنادق»، وليحكي في روايته «أم سعد» الرؤية ذاتها ضمن وعي جذري مروي بلغة التفاصيل العيانية، عن أم سعد في اصطدامها مع المنفى، عبر حكايات تعليمية تتنازل قدر الامكان عن البنية الفنية العالية التي تجسدت في روايته «ما تبقى لكم». هكذا، اذاً، تقول الرواية: «بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو»[٩]. ان أم سعد تعلم الراوي كيفية رؤية الأحداث في نبضها وحرارتها الواقعية... ولكن هذه الصيغة التعليمية تبالغ في رسم شخصيتها الرئيسية «أم سعد»؛ اذ تصورها في شكلها الثوري دون أن تضع في حسابها حرارة حب الأم لولدها وخوفها عليه، فهي نموذج ثوري مجرد من احساسات الخوف والرهبة. «إذا عاد سعد الى البيت الليلة، اذا عاد، فلن أستطيع تناول الطعام...»[١٠]. ورغم ذلك، فان غسان يستولد من المخيم قيم النضال